# الظاهرة السلفية

## التعددية التنظيمية والسياسات

# الظاهرة السلفية

## التعددية التنظيمية والسياسات


تحرير

بشير موسى نافع – عز الدين عبد المولى – الحواس تقية

تأليف

مجموعة من الباحثين

هشام بن غالب — عبد الرحمن الحاج — جمال الشريف

عمار أحمد فايد — محمد أبو رمان — محمد بدري عيد

أحمد محمد الدغشي — ماجد عزام — رياض الشعيبي

يحي الكبيسي — سعود المولى — حسن الأشرف

محمد سالم ولد محمد — حسن محمد إبراهيم



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

**الطبعة الأولى**

**1435 هـ - 2014 م**

**ردمك 978-614-01-1041-0**

**جميع الحقوق محفوظة**

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

# المحتويات


تمهيد ..... 7

**الفصل الأول**

السلفية: إشكالية المصطلح، التاريخ، والتجليات المتعددة — بشير م. نافع..... 11

**الفصل الثاني**

السلفية السعودية في ميدان السلطة — هشام بن غالب ..... 33

**الفصل الثالث**

السلفيون في مصر: من شرعية الفتوى إلى شرعية الانتخاب — عمار أحمد فايد..... 49

**الفصل الرابع**

السلفية اليمنية: الأصول والفروع — أحمد محمد الدغشي..... 75

**الفصل الخامس**

السلفية في العراق: تقلبات الداخل وتجاذبات الخارج — د. يحيى الكبيسي ..... 89

**الفصل السادس**

السلفية والسلفيون في سورية: من الإصلاح إلى الثورة — عبد الرحمن الحاج .....117

**الفصل السابع**

سلفيو الأردن وثورات الربيع العربي — د. محمد أبو رمان.....141

**الفصل الثامن**

السلفية في فلسطين: الخلفيات، الواقع والآفاق — ماجد عزام.....159

**الفصل التاسع**

السلفيون في لبنان: التأرجح بين الدعوة والسلاح — سعود المولى.....173

**الفصل العاشر**

السلفية في السودان: الانقسام بين السلمية والمواجهة — جمال الشريف ..... 191

**الفصل الحادي عشر**

التيار السلفي في الكويت: الواقع والمستقبل — محمد بدري عيد..... 205

**الفصل الثاني عشر**

السلفية في تونس: مخاض التحول — رياض الشعيبي ..... 221

**الفصل الثالث عشر**

سلفيات المغرب: توجهات ومسارات — حسن الأشرف ..... 233

**الفصل الرابع عشر**

السلفية في موريتانيا ومنطقة الساحل الإفريقي — محمد سالم ولد محمد..... 247

**الفصل الخامس عشر**

الاتجاه السلفي ومستقبله في السياسة الصومالية — حسن محمد إبراهيم..... 259

# تمهيد

تبلور هذا الكتاب من مشروع تعهده قسم الأبحاث بمركز الجزيرة للدراسات، طوال زهاء العام، من أجل استطلاع خارطة القوى والجماعات ذات التوجه السلفي في دول المجال العربي المختلفة. الدوافع خلف إطلاق هذا المشروع واضحة وبسيطة؛ ففي الوقت الذي يتسع دور التيار الإسلامي السياسي وتزداد أهمية قواه، سواء في دول الثورة العربية، أو تلك التي لم تشهد بعد حراكاً شعبياً ملموساً، فإن الجماعات الإسلامية السلفية تجذب اهتماماً خاصاً منذ بدايات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، على الأقل. والمشكلة أن هذا الاهتمام انصب في معظمه على دراسة ما يعرف بالسلفية الجهادية؛ أي الجماعات الإسلامية المسلحة، التي تقول بانتمائها للمدرسة السلفية، سيما تلك التي نظر إليها باعتبارها مصدر تهديد للقوى الغربية. في المجمل، وبخلاف قوى التيار الإسلامي السياسي الرئيسة، مثل الإخوان المسلمين، بفروعهم المختلفة، والأحزاب السياسية التي نشأت عنهم في العديد من الدول العربية، فإن هناك القليل مما هو معروف عن الجماعات السلفية، سواء في الساحة العربية ككل أو في أي بلد عربي واحد.

يعتبر الخطاب السلفي، بكل تنوعاته، عنصراً قديماً وأصيلاً في تعبيرات العلماء المسلمين السنة عن أنفسهم وتصورهم للدين والعالم. ولكن تجلي هذا الخطاب في جماعات منظمة، ذات توجه دعوي أو سياسي، تأخذ صورة الحركات الاجتماعية، هو تطور حديث نسبياً في تاريخ الإسلام والمدرسة السلفية. وتعتبر الحركة الوهابية – السعودية إحدى أولى الحركات الاجتماعية – السياسية في تاريخ المدرسة السلفية؛ ولكن انطلاقة هذه الحركة لا بد أن تقرأ في إطار خصوصيات منطقة نجد القرن الثامن عشر، الاقتصادية والاجتماعية. إن ما تشهده بلدان عربية وإسلامية من انتشار متسع ومتزايد في عديد وتأثير الجماعات السلفية هو تطور يكاد يكون غير مسبوق في التاريخ الإسلامي.

فمن هي هذه الجماعات السلفية النشطة في البلدان العربية؟ كيف نشـــأت، ومن أين استمدت إلهامها، وما هي طبيعة علاقاتها بالقوى والجماعات الإســـلامية الأخرى، وبمؤسسة العلماء المسلمين التقليدية؟ من هي شخصياتها المعتبرة، ومن هم العلماء/الدعاة الذين يتحدثون باسمها؟ هل تحمل هذه الجماعات رؤية أيديولوجيـــة متماسكة، وما الذي تسعى إلى تحقيقه؟

هذه بعض الأسئلة التي ستحاول الفصول التالية من هذا الكتـــاب الإجابـــة عليها. وباستثناء الفصل الأول، الذي ينحو منحاً نظرياً ويتناول تـــاريخ مصـــطلح السلفية وتطوره، والتجليات الفكرية الرئيسة للمدرسة السلفية، فإن ما يســـتهدفه كل فصل على حدة من فصول الكتاب هو توفير قراءة مباشرة لخارطة الجماعـــات السلفية في بلد معين: تاريخ موجز لكل من هذه الجماعات، توجهاتهـــا وقياداتهـــا الرئيسة، وتقدير نسبـــي لحجمها وتأثيرها الاجتماعي أو السياسي. وإلى جانـــب اللجوء إلى باحثين متخصصين في البلد الذي يتناوله أي من هذه الفصـــول، فقـــد مرت النصوص بعملية التقييم الأكاديمية المتعارف عليها قبل أن يقرر نشرها.

بعض من جوانب الصورة التي يقدمها هذا الكتاب للتيار السلفي الجديـــد في العالم العربـــي كانت معروفة أو مضمرة في أوساط الدارسين للظاهرة السلفية. ما تقوم به هذه النصوص هو توكيد هذه الجوانب مـــن الصـــورة وتـــوفير الأدلـــة الاستقرائية عليها. ولكن جوانب أخرى لم تكن ظاهرة للعيان، أو أنها لم تأخذ سمة الخصائص المؤكدة والموثقة. نحن أمام ظاهرة مختلفة، إلى حد ملموس، عـــن قـــوى الإسلام السياسي التقليدية؛ بمعنى أنها ظاهرة متعددة الجماعات، في البلد الواحـــد وفي فترة زمنية واحدة، إلى حد كبير، سواء لتعدد المرجعيات العلمائية والدعويـــة السلفية التي التفت حولها الجماعات، أو لقابليتها للانقسام بفعل الخلافات الفكرية البسيطة. وتبدو الجماعات السلفية المعاصرة، كما تقول الزميلة مضاوي الرشـــيد، كأنها أكثر توائماً مع المناخ ما بعد الحداثي؛ بحيث يعكس تعددها وتكاثرها المستمر تشظي المرجعيات وتضاؤل الاهتمام بالتنظيم الهرمي.

ومن العبث محاولة تكوين نموذج مثالي - بالطريقـــة الفيبريـــة - للظـــاهرة السلفية. بعض الجماعات وجدت أولاً باعتبارها جماعات إسلامية، سياسية صغيرة، غير إخوانية، أو مسلحة، ثم أصبحت سلفية بعد ذلك؛ بعضها الآخر ولـــد بفعـــل

نشاطات وفاعلية علماء تأثروا بالتعاليم السلفية الوهابية، أو تلقوا تعليمهم في جامعات إسلامية سعودية؛ وبعضها الآخر نشأ سلفياً من البداية، نتيجة لجهود مجموعة من النشطين السلفيين، أو نتيجة لانشقاق عن جماعة سلفية أمّ. ولا يمكن إغفال دور حلقات المساجد التي تديرها جمعيات سلفية تقليدية، أُسست في أوقات مبكرة من القرن العشرين لأهداف دعوية بحتة، مثل الجمعية الشرعية وأنصار السنة، في نشر الثقافة السلفية في أوساط الأجيال الإسلامية الشابة؛ أو جاذبية جماعات المقاومة الإسلامية في أفغانستان والعراق، التي صنعت لنفسها صورة تماهت فيها مكونات سلفية فكرية مع فكرة الجهاد والمقاومة. بعض الجماعات السلفية يتسم بقدر ملموس من الديناميكية، أو البراغماتية، والقدرة على التكيف والاستجابة للمتغيرات الموضوعية؛ وبعضها الآخر أكثر محافظة، وانكفاءً على الذات. وربما يمكن القول إن تعددية الجماعات، وتعددية مصادر الإلهام وظروف النشأة والأهداف في الظاهرة السلفية الجديدة، تسوغ الحديث عن سلفيات وليس عن سلفية واحدة.

بيد أن من الضروري التذكير بأن هذا الكتاب لا يقدم مسحاً شاملاً لخارطة الجماعات السلفية في الدول العربية قاطبة. كما أن كونه مجرد مقدمة لدراسة الظاهرة السلفية، لا يذهب بعيداً في قراءة الأصول الفكرية، وتبيان تناقضاتها أو صلابتها ومعاصرتها. لا توفر فصول هذا الكتاب، مثلاً، تحليلاً معمقاً للنصوص المؤسسة أو الرئيسة للجماعات السلفية محل الدراسة، ولا ترصد السلالة الفكرية لهذه الجماعات إلا بصورة مختصرة وكلما استدعت الضرورة. وبالرغم من الإشارات المتعددة للوسط الاجتماعي الذي تنشط فيه هذه الجماعات، أو الذي تنحدر منه كوادرها وقياداتها، فلا يمكن اعتبار الفصول التالية كافية لتقديم قراءة اجتماعية لهذه الظاهرة المؤثرة اجتماعياً، بلا شك. مثل هذه المقاربات البحثية لا بد أن تترك لدراسات أكثر تركيزاً وتحديداً في المستقبل.

**المحررون**

**سبتمبر/أيلول 2013**

## الفصل الأول

# السلفية: إشكالية المصطلح، التاريخ، والتجليات المتعددة

بشير م. نافع*

* باحث في التاريخ المعاصر.

يحتل الجدل حول السلفية والسلفيين موقعاً بارزاً في دراسات الإسلام المعاصر، ليس في أوساط البحث في بلدان العالم الإسلامي وحسب، بل وفي الدوائر العالمية ذات الاهتمام بالعالم الإسلامي كذلك. ارتفعت وتيرة هذا الجدل منذ بداية العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، سيما إثر الهجمات التي تعرضت لها مدينتا نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001، التي يُعْتَقد أن تنظيم القاعدة كان المسؤول عنها. وقد تلقى هذا الجدل دفعة أخرى خلال سنوات اشتعال المقاومة الأفغانية والعراقية ضد الاحتلال الأميركي، بفعل مشاركة جماعات إسلامية وُصفت بالسلفية في تلك المقاومة. ومنذ اندلاع حركة الثورة العربية في تونس، في ديسمبر 2010، وانتشارها في أكثر من دولة عربية أخرى، وتشكيل العديد من الجماعات السلفية أحزاباً سياسية، لم يعد الجدل مقصوراً على الدوائر الأكاديمية المتخصصة أو الخبراء الأمنيين والعسكريين. عندما يتشكل ائتلاف للقوى السلفية ويحصد أكثر من عشرين بالمائة من مقاعد البرلمان، كما حدث في الانتخابات البرلمانية المصرية الأولى بعد الثورة، في يناير/كانون ثاني 2011، ينتقل الجدل حول السلفية والسلفيين من الحدث التاريخي العابر، مهما كان الحدث محدوداً أو متفاقم الأثر، إلى مسألة تتعلق بمستقبل شعوب ومجتمعات ودول.

يكشف بعض من هذا الجدل عن المفاجأة والاضطراب الكبيرين في محاولة التعامل مع الظاهرة السلفية وجماعاتها وقواها السياسية[1]. فلسنوات طويلة، صورت قوى الإحياء الإسلامي وكأنها كتلة مصمتة؛ بدون أن يؤخذ في الاعتبار التنوع

---

1 انظر، مثلاً:

John Hooper and Brian Whitaker, "Extremist View of Islam Unites Terror Suspects," The Guardian, 26 October 2001; Quinton Wiktorwicz, "The New Global Threat: Transnational Salafis and Jihad," *Middle East Policy*, 8, 4(December, 2001), 18-38.

وقارن بـ: Basheer M. Nafi, "The Root of All Evil," *Al-Ahram Weekly*, 9-15 January 2003.

الكبير في منابتها الفكرية، وفي السياقات الاجتماعية والسياسية التي حددت ولادتها ونشأتها. ولأن الاهتمام بالتيار السلفي واكب أحداثاً سياسية تركت أثراً كبيراً على النظام الدولي وعلى علاقات الكتلة الغربية بالعالم الإسلامي، اتسمت دراسة التيار السلفي بالتسرع، وأصبحت ميداناً للمتخصصين وغير المتخصصين، وللباحثين الجادين كما لدوائر الدعاية والعلاقات العامة. وربما يمكن القول إنه لم يتوفر بعد قدر كاف من الدراسات التي تسهم في تحديد المقصود من السلفية، وكيف يمكن التمييز بين السلفي وغير السلفي في خارطة الإحياء الإسلامي، أو لتاريخ التيار السلفي وتحولاته؛ كما لا تتوفر أعمال كافية، تساعد على رسم صورة قريبة للتعددية الكبيرة في الساحة السلفية، أو للبيئات الاجتماعية والثقافية التي تزدهر فيها التوجهات السلفية.

هل ثمة من علاقة بين السلفيين المعاصرين وسلفية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ أو بين وصف حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين بالسلفية واستخدام الوصف نفسه من قبل الجماعات التي تعرف نفسها الآن من منظار التزامها بالسلفية؟ هل هناك، بكلمة أخرى، سلفية واحدة، أو بالأحرى سلفيات؟ باستثناء السردية السائدة، التي تربط بين الجماعات السلفية والمعارضات الإسلامية المسلحة، من ناحية، وبينها وبين شبكة جهاد عالمية مدعاة[1]، فإن هناك القليل مما يمكن أن يساعد على معرفة جذور حزب النور، السلفي المصري، مثلاً، أو الأسباب التي أدت إلى ولادة الجماعات السلفية التونسية، أو المسوغات التي تجعل مجموعة سلفية تسلك نهج المعارضة الحزبية السياسية، وأخرى نهج العمل المسلح، وثالثة الولاء للنظام الحاكم، مهما كانت طبيعة النظام.

فما هو المقصود بالسلفية على وجه التحديد، وهل هي ظاهرة إسلامية طارئة أم مدرسة ذات جذور تاريخية، وكيف يمكن فهم وقراءة تجلياتها المعاصرة؟

---

1 Roel Mejer, *Islam New Religious Movement* (London: Hurst, 2009); Frazer Egerton, *Jihadism in the West: The Rise of Militant Salafism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011); Quintan Wiktorowicz, "The New Global Threat: Transnational Salafis and Jihad," *Middle East Policy*, 8 (December, 2001): 18-38.

## إشكالية المصطلح والتاريخ:

يستخدم مثقفون وباحثون، مسلمون وغير مسلمين، ليبراليون أو يساريون، مصطلح السلفية، أحياناً، لتحديد التوجه الفكري لكافة تيارات الإحياء الإسلامي[1]، على اعتبار أن هذه التيارات جميعاً تنادي بإحياء نموذج متصور للماضي، نموذج يخص ماضياً سلف، انتهى و لم يعد من الممكن استعادته. من هذا المنظار، تصبح كل قوى الإسلام السياسي، ابتداءً من الإخوان المسلمين، وجماعة إسلامي في باكستان، وحركة النهضة في تونس، وحزب التحرير، والسلفية الجهادية، كلها جماعات سلفية. ولد هذا التصور للسلفية خصوصاً في ساحة التدافع السياسي، عندما بدأت قوى وجماعات الإسلام السياسي في العقود الأخيرة من القرن العشرين في منافسة القوى والجماعات القومية واليسارية على ولاء الشارع العربي وحركته. ولا يخفى أن وصف القوى الإسلامية كافة بالسلفية ينبع من تصور القوى الليبرالية والعلمانية لنفسها، باعتبارها حارسة فكرة التقدم، التي تفصلها عن القوى الإسلامية، المتشبثة بالماضي. المشكلة في هذا التصور أنه يغض النظر عن أن مصطلح السلفية ذو أصل إسلامي، ولد وتبلور في سياق تاريخي، فكري - ثقافي إسلامي الطابع، ولا بد بالتالي أن يجري البحث عن دلالاته في سياقه الخاص.

السلف لغة هم المتقدمون[2]، وقد استخدم المصطلح بصيغة السلف الصالح من الأمة في خضم الجدل الذي ثار، في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري والنصف الأول من القرن الثالث، بين المعتزلة ومعارضيهم من العلماء والفقهاء، سيما أهل الحديث، مثل أحمد بن حنبل (ت 241هـ/855)، إسحق بن راهوية (ت 238هـ/853)، على بن المديني (ت 258هـ/873)، ويحيى بن معين (ت 233هـ/847). وليس ثمة شك أن ابن حنبل كان الشخصية الأبرز في هذا الجدل، وقد سجّل تاريخ الإسلام المبكر وقوفه في وجه المعتزلة ومن حاول من

---

1 انظر، مثلاً، نبيل عبد الفتاح، المصحف والسيف: صراع الدين والدولة في مصر (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1977)؛
Samir Amin, *The People's Spring* (Oxford: Pambazuka Press, 2012).

2 ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1955)، ج 9، 158.

الخلفاء العباسيين فرض تصورهم للدين على عموم العلماء والقضاة المسلمين[1]. رفض ابن حنبل مقولات المعتزلة حول خلق القرآن وصفات الله، مستنداً في رده إلى عدد من الدفوع، بينها أن ما يقول به المعتزلة لم يقله سلف الأمة، أي الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين: الصحابة، والتابعين، وتابعو التابعين. بمعنى أن مقاربة المعتزلة للنص القرآني ومسائل الدين الكبرى ليست سوى بدعة جديدة، لم تعهد عن من يقر لهم عموم المسلمين بالسابقة والفضل والقرب من صاحب الرسالة وعصره. بكلمة أخرى، دفع أهل الحديث بأن مقولاتهم حول مسائل الجدل والخلاف مع المعتزلة هي الأقرب للحق لأنها مذهب السلف من الأمة[2].

لم يكن أهل الحديث، الذين شكلوا رافداً رئيساً في تبلور أهل السنة، مجرد حركة، تضم مجموعة من العلماء والمحدثين، تقف موقف المعارضة من تحالف متكلمي المعتزلة وسلطة الخلافة العباسية، بل ومنهج نظر وطريقة في فهم مسائل الدين وأحكامه. في اختلاف مع من عُرِفوا آنذاك بأصحاب الرأي، (الذين أعطوا للفقيه مشروعية إعمال رأيه الخاص، المستند إلى فهمه لمسائل الفقه، وشككوا في مصداقية الكثير من الأحاديث المتداولة في الأمصار، واتهموا خصومهم بالتساهل في الأخذ بالأحاديث الضعيفة)، أعلى أهل الحديث من قيمة النص، سيما نصوص القرآن والحديث، وقدموه على الرأي، مهما بلغت وجاهة صاحب الرأي من الفقهاء. في حالات استثنائية فقط، لجأ ابن حنبل، مثلاً، إلى القياس، الذي هو إعمال مقيد للرأي، على أية حال. خلال القرنين التاليين، الرابع والخامس الهجريين، ولدت المذاهب الفقهية الرئيسة عند أهل السنة، وأصبحت أكثر مأسسة وانتشاراً[3]. لم يستمر أهل

---

1 فهمي جدعان، المحنة: بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام (عمان: دار الشروق للنشر، 1989)؛
Nomrod Hurvitz, *The Formation of Hanbalism: Piety into Power* (London: Routledge, 2002).

2 محمد بن إسحق بن النديم، الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان (الدوحة: دار قطري بن الفجاءة، 1985)، 485؛ محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2001)، ج 9، 357.

3 Christopher Melchert, *The Formation of the Sunni Schools of Law, 9th-10th Centuries C. E.* (Leiden: Brill, 1997); Wael B. Hallaq, *The Origins and Evolution of Islamic Law* (Cambridge; Cambridge University Press, 2005), 150-77.

الحديث، كتيار فعال ومؤثر في صفوف العلماء المسلمين، طويلاً بعد ذلك، وإن لم يختف كلية. وبانتشار المذاهب الفقهية الأربعة في المجال الإسلامي، امتص المذهب الحنبلي أغلب، وليس كل، من اعتبروا أنفسهم من أهل الحديث. وبالرغم من الاختلافات التفصيلية بين المذاهب، فقد انتهى تطورها جميعاً إلى الاستناد للمركب العبقري بين النص والاجتهاد، الذي يعزى لإسهام الشافعي الفقهي.

من جهة أخرى، برزت في أوساط الجسم السني المتسع مدارس كلامية أكثر تعقيداً، ولدت، على الأرجح من الحاجة التي فرضها التشعب والتعقيد المتزايد في الجدل الإسلامي الكلامي. وقد واكب هذا التطور تساهل المتكلمين السنة، كما يظهر تطور المدرسة الأشعرية، بعد أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ/939)، مع المقاربة التأويلية للنص، التي تجنبها أهل الحديث في السابق. مع القرن الخامس الهجري، كان أغلب علماء أهل السنة قد انضووا في المدرستين الأشعرية والماتريدية، المتقاربتين إلى حد كبير[1]. ولكن هذا لم يمنع من استمرار وجود عدد من العلماء الأوفياء لمنهج أهل الحديث وتعاملهم المباشر مع النص. في نهايات القرن السابع وبدايات الثامن الهجريين، برز أحمد بن تيمية (ت 728هـ/1328) باعتباره أهم متكلمي أهل السنة. كان ابن تيمية حنبلياً، في وقت بلغ المذهب درجة عالية من النضج، سواء في نظريته الأصولية أو أدواته الفقهية. هذا لا يعني أن اهتمام ابن تيمية اقتصر على المجال الفقهي، بل تمحور أساساً حول المسائل العقدية وأصول الدين. ولكن ما حدد رؤية ابن تيمية للإسلام، لم يكن ميراث المذهب وحسب، بل عدد من المتغيرات البارزة في وضع الجماعة المسلمة وفي المناخ الفكري والثقافي الذي أحاط بالجماعة، أيضاً[2].

---

1 للفروق بين الأشعرية والماتريدية، انظر:
W. Montgomery Watt, *The Formative Period of Islamic Thought* (Edinburgh: Edinburgh University press, 1973), 314-316.

2 حول ابن تيمية وزمانه، أنظر: محمد أبو زهرة، إبن تيمية: حياته وعصره، آراؤه وفقهه (القاهرة: دار الفكر العربي، 1991)؛
Yossef Rapoport and Shahab Ahmad (eds.), *Ibn Taymiyya and His Times* (Oxford: Oxford University press, 2010);Ovamir Anjum, "Reason and Politics in Medieval Islamic Thought: The Taymiyyan Movement," A Ph D dissertation, University of Wisconsin-Madison, 2008; see Henri Laoust, *Essai sure les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din b. Taimiya* (Cairo: Institut Français d'Archéologie, 1939).

كان عصر ابن تيمية هو عصر ما بعد الغزو المغولي والاضطراب الاجتماعي - الاقتصادي الهائل الذي أوقعه في منطقة القلب من بلاد المسلمين. ولأن المغول انتهوا إلى اعتناق الإسلام، فإن المواجهة بين السلطة المغولية في العراق وإيران، والسلطة المملوكية في مصر وبلاد الشام، المعززة بمؤسسة الخلافة العباسية، الوافدة إلى القاهرة بعد سقوط بغداد، ستتسبب في اضطراب إضافي على المستوى العقدي وما يتعلق بالشرعية السياسية. كما شهد عصر ابن تيمية، وشارك في جولة جديدة من التدافع الفكري بين العلماء الشيعة الاثني عشرية، المقربين من السلطة المغولية، وبين العلماء السنة. وفي الدائرة السنية نفسها، كان المتكلمون الأشاعرة قد ذهبوا بعيداً في تبني المنهج التأويلي للنص وفي بناء تصور عقدي للإسلام بالغ التركيب، مستخدمين أدوات خصومهم من المعتزلة والفلاسفة ذاتها. وفي الوقت نفسه، وفي مواكبة للاضطرابات الاجتماعية - الاقتصادية وفقدان اليقين السياسي، شهد التصوف تطورين بالغي الأهمية: الأول، على مستوى الشكل، والانتقال من حلقات التربية المتفرقة في أنحاء الجماعة المسلمة، الملتفة حول شخصيات كارزمية تتصف بالزهد والحكمة، إلى الطريقة الصوفية، الأكثر تنظيماً ومأسسة، المتميزة بطقس ونظام خاصين من الولاء والزهد والتقوى. أما الثاني، فكان التوجه المتزايد للطريقة الصوفية نحو اعتناق تصور إيديولوجي - فلسفي للعالم ولعلاقة الإنسان بالله والكون، استند إلى حد كبير على ميراث الفيلسوف المتصوف الكبير محيي الدين ابن عربي، ومبدأ وحدة الوجود. كان عصر ابن تيمية، على وجه الخصوص، بداية التماهي التدريجي في صفوف العلماء المسلمين السنة بين وظيفة الفقيه والعقيدة الأشعرية والتصوف الطرقي.

مسلحاً بمعرفة موسوعية ودقيقة للميراث الإسلامي بكافة مدارسه، وبعقل بالغ الحدة والذكاء، وشعور عميق بالواجب، خاض ابن تيمية مواجهة واسعة النطاق ضد ما اعتبره انحرافاً في التصور الاثني عشري للدين، ضد ادعاء المغول شرعية تمثيل الجماعة المسلمة، ضد التصوفين الفلسفي والشعبوي، وضد نزعة التأويل الأشعرية ومنتجها، سواء في معرفة الله وصفاته أو في مسؤولية الإنسان عن أفعاله. بعد مرور قرون على أهل الحديث ونضوج المذاهب الإسلامية، لم يتنكر ابن تيمية لطرق الأصوليين، بما في ذلك اعتماد القياس، ولكنه أظهر في الوقت نفسه نزعة أصيلة للعودة إلى النص المؤسس في مواجهة التعصب للمذهب. وكان

طبيعياً أن يولّد الميل للعودة إلى النص المؤسس نـــزعة اجتهادية لا تخفى. كمـــا أن هجومه، غير القابل للمساومة، على ما اعتبره انحرافاً في المحتوى الفلسفي للتصوف وفي ممارسات المتصوفة، لم يمنعه من إظهار تقدير أصيل للتصوف في صورته المبكرة عند الجنيد، وحتى عند عبد القادر الجيلاني.

كان ابن تيمية متكلماً بمعنى أنه استخدم وسائل وأدوات المـــتكلمين، ولكـــن رفضه الحاسم في النهاية لمقولات المتكلمين الرئيسة يجعله متكلماً من صـــنف آخـــر. وكان ابن تيمية مدافعاً صلباً عن مقولات أهل الحديث في الصفات وعن موقفهم في مواجهة المعتزلة، ولكن هذا لا يجعله مجدداً لطريقة أهل الحديث، لـــيس فقـــط لأن موضوعاته أوسع بكثير، وبصورة لا تسمح بالمقارنة، من موضوعات أهل الحـــديث، ولكن أيضاً لأن طرائقه تجاوزت طرائق أهل الحديث في التعامل المباشر والبسيط مـــع النص، مستنداً في ذلك إلى مواريث الإسلام المتراكمة والمتنامية. وربما يمكن القول أن إسهام ابن تيمية في تحديد ملامح المدرسة السلفية يشمل النقاط التالية: تجنب التأويل فيما يتعلق بصفات الله، توكيد مسؤولية الإنسان عن أعماله بما أودع الله فيـــه مـــن قدرة، أولوية النص المؤسس (القرآن والسنة) مصدراً للشريعة والـــدين، الـــدعوة إلى الاجتهاد، ومعارضة التصوفين، الفلسفي والشعبوي، والغلو الطائفي على السواء.

وُصف ابن تيمية هو أيضاً بالدفاع عن مذهب السلف، سلف الأمة الأوائـــل، وفهمهم للدين؛ ولكن منهج ومضمون هذا الدفاع اختلف وتنوع واتسع عن دفـــاع ابن حنبل وأهل الحديث عن مذهب السلف وطريقتهم. مع ابن تيمية سيبدأ استخدام السلفية في التطور من مجرد المضمون اللغوي المباشر إلى الاستقلال بذاتـــه باعتبـــاره مصطلحاً مدرسياً للتعبير عن انحياز إيديولوجي. سنجد أبـــو الفـــداء ابـــن كـــثير (ت 773هـــ/1374)، في أحداث سنة اثنتين وتسعين وستمائة هجرية (1292)، يذكر وفاة الشيخ تقي الدين الواسطي الدمشقي، شيخ الحديث بالمدرسة الظاهرية، واصفاً إياه بـــ "الداعية إلى مذهب السلف"[1]؛ كما وُصفت رؤية ابن تيمية للإسلام بأنهـــا "طريقة السلف"، و"مذهب السلف"، و"عقيدة السلف". مع القرنين الثامن والتاســـع عشر الميلاديين، برز وعي ذاتي لدى أنصار الرؤية السلفية، ووعـــي مقابـــل لـــدى مخالفيهم، بوجود تيار سلفي أيديولوجي متميز، وليس فقط شخصـــيات علمائيـــة

1 الحافظ بن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، 1979)، ج 13، 333.

بعينها، واكتسب مصطلح "السلفية" مزيداً من الاستقلال والإشارة إلى مدرسة عقدية معينة، داخل الدائرة الواسعة لأهل السنة[1]. ولكن من الضروري ملاحظة مسألتين هامتين ومتداخلتين، في الوقت نفسه، في قراءة مصطلح السلفية وتطوره: الأولى، أن السلفية، وكما أي مصطلح ذي تاريخ، لا يمكن تعريفه بصورة قاطعة، وأنه لم يكن بالتالي يعني مضموناً واحداً دائماً، بالرغم من المشتركات بين من وصفوا به أو انضووا تحته. ما أدى إلى هذا التنوع في الدائرة السلفية، لم يكن السياق التاريخي وحسب، بل أيضاً تميز طبقة العلماء المسلمين بحرية التعلم والفكر والاستقلال، بمعنى أن كلاً من العلماء المسلمين كان فرداً مميزاً ومستقلاً بذاته. أما الثانية، فبخلاف الانقسام الكاثوليكي - البروتستانتي، لم تقع في الساحة الإسلامية السنية قطيعة فعلية بين من اعتبروا سلفيين في توجههم، ومن اعتبروا أشاعرة أو فقهاء مذهبيين. فقد ضم إطار أهل السنة والجماعة العريض كلا الطرفين، وكان هناك دائماً مساحة تماه وسيطة ومعتبرة بين ما هو سلفي وما هو غير سلفي، فقهياً وعقدياً.

إن كان ابن تيمية سينظر إليه في القرون التالية باعتباره المرجعية الرئيسة للمدرسة السلفية، فإن من المهم ملاحظة أن رؤيته للإسلام لم تحقق تقدماً ملموساً في حياته، نظراً للصعود الهائل لسلطة المذاهب الفقهية والطرق الصوفية منذ القرن الرابع عشر الميلادي؛ بل وانتشار الطرق الصوفية الحثيث في أوساط العلماء في الحواضر الإسلامية الرئيسة من فاس إلى دلهي. ولأن معارضي ابن تيمية نظروا إليه باعتباره مثيراً للجدل، فإن آراءه تعرضت لما يشبه النفي والمصادرة خلال القرون الثلاثة التالية لوفاته. كان هناك دائماً، بالطبع، من حاول إعادة الاعتبار للمقولات الرئيسة للمدرسة السلفية كما عبر عنها ابن تيمية، ومن تبنى بعض هذه المقولات على نحو أو آخر، لكنها كانت دائماً محاولات فردية، و لم تستطع تشكيل تيار فكري يعتد به.

## التجليات:

بدأت، في النصف الثاني من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، وفي دوائر علماء الحرمين على وجه الخصوص، حركة فكرية إصلاحية، كان أبرز سماتها

1 Basheer M. Nafi, "Abu al-Thana' al-Alusi: An 'Alim, Ottoman Mufti, and Exegete of the Qur'an," *International Journal of Middle East Studies*, 34 (2002): 466.